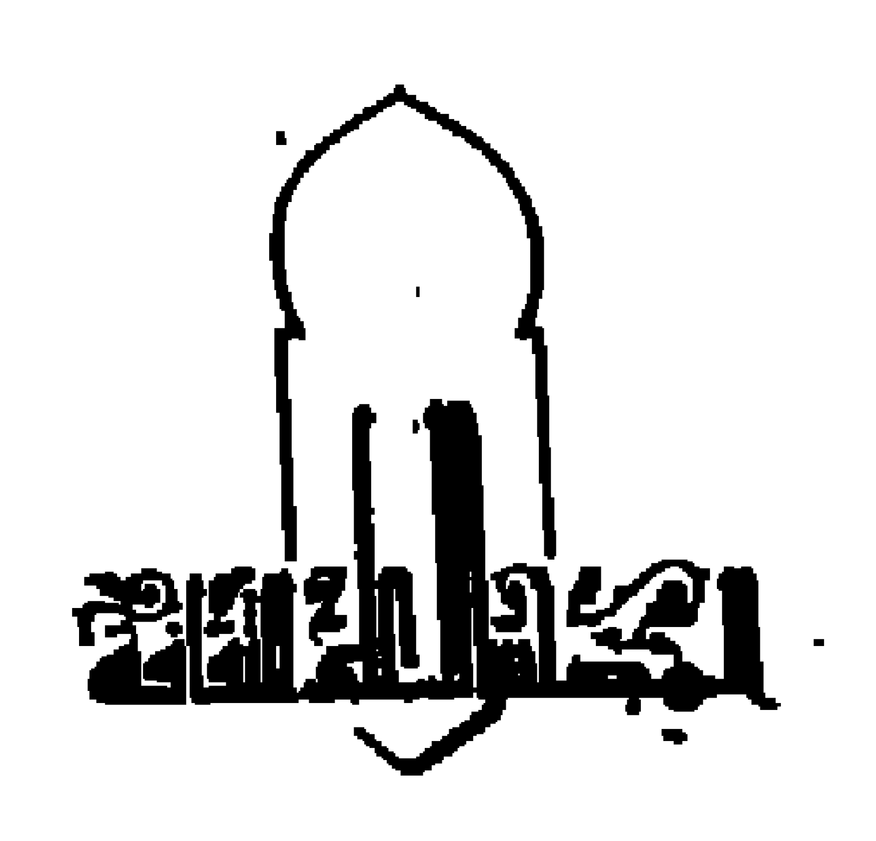


أشرعة الغيمة المضيئة
محمد أحمد حمد
المجلس الأعلى للثقافة

أشرعة الغيمة



أشرعة الغيمة المضيئة

محمد أحمد حمد

الإشراف الفني والغلاف : محمود القاضي

إهـــــداء

إلى شـــجــــرة الحب الوارف
التى اقـتطعتـها فـأسُ المـوت
فـتوسَّدت تراب مـصـر لتـزيده
خـصبا ، ونزلت روحـها ضيفـة
على السـمـوات حتى يوم البـعث
إلى ... أمى !

م . أ. حمد

النســـــيان

وحدى فى طرقات المدن الساجيةِ الأجفانْ
أتجولُ قبراً مفتوحاً مزدحَماً بالموتى
أتوارى في أكفان الليل الضوْئيَّةْ
أتعثَّرُ فى أحجار الأرصفةِ الخرساءْ
مرتجفاً كهلالٍ فى قبضةِ ريح شتويَّةْ
فلقد يعرفُنى اللحادونَ فيوصُونَ
بضميٍّ للأضرحة المفغورةْ
لا أسمعُ فى كهفِ الأعماقِ السُّفليَّةْ
طقطقةَ العظمِ المتراكمِ أو خشخشةَ الديدانِ
بجُمجُمةٍ منخورةْ
بل تصحو عبر فضائى أرواحُ الموتى أجنحةً فضيَّةْ
تلمعُ كالبللوراتِ الثلجية فى جوف السحب السوداءْ

أُتسمَّعُ في الصمتِ الغافي أصواتهمو الخافتة الزرقاءْ

فأحاوِرُها بالدمع الساخنِ والآهات المكتومةْ

يتطلّعُ من داخليَ الموتى بعيونٍ حانيةٍ مكلومةْ

مفعمة بحنينٍ شفاف غامض

يتلألأ في شمسِ الذكرى

شلالاتٍ في منحدراتِ القلبِ الأسيانْ

أنفثُ أسئلتى الملْتاعةَ فى أضلاعِ القبرِ السِّرِّىْ

عن معنى همساتهم العاتبةِ الليليَّةْ

وقد ارتاحوا من نزْفِ جراحهمُ الحارقةِ الوحشيَّةْ

فيجيب الموتى أنهمو لا يرْجونَ العوْدة للصخب اليومىْ

لكنهمو يخشَوْنَ أعاصيرَ الصفصافِ العدَميَّة

تُلقى فوق وجوههمو رملَ النسيانْ

هل أنسى نظراتِ وداعكِ يا أمى:

نظراتِ رحيلِ السفْنِ على حزْنِ الخلجانْ؟!

نظراتِ غروبِ الشمسِ على دمعِ الوِدْيانْ؟!

١٩٩٦/١/٢٥

وردةُ النّدمْ

السماواتُ نحاسٌ شفقيٌّ، وذؤاباتُ غصونٍ
وطيورٌ عائدةْ
وأنا فى غبَشِ المغربِ نجمٌ من عصورٍ بائدةْ
فى دمى «بودليرُ» يبكى
جُرحَهُ الطالعَ من ليْل المسرّاتِ الخفيّةْ
ورْدةً حمْراءَ من أحراشِ «مالابارَ»
غاباتِ الجنوبْ
وَهَجُ الخضرةِ فى أبْهائها وهْجُ الزمرّدُ
حطَّ فيها طائرُ الشِّعرِ يغنىِّ
لصبايا الماءِ والخضرةِ والشمْس
وألْوانِ الرِّمالِ الذهبيَّةْ
جذبتْهُ نحو سرِّ السَّاحلِ السِّحْرىِّ

أصداءُ طبولٍ وثنيَّةْ

نبتتْ فى صدْرِهِ وردةُ عشقٍ شبقيَّةْ

غَرَستْها فى دمِ القلبِ فتاةُ الأبنوسْ

طفلةٌ تقْطرُ بالنَّدِّ وبالصنْدلِ والحسن الخرافىِّ الشَّموسْ

شفةٌ لمياءُ من توتٍ، ونهْدٌ مثل جوْزِ الهندِ

مغسولٌ بشُهْدٍ ونبيذْ

خَصْرَها الأهيفُ مضْفورٌ من العشبِ وعارٍ

يشعلُ الرقصَ بأصلابِ خُصورِ الصخرِ والأشجارِ

تسَّاقُط أثمارٌ، ويعلو صوتُ موسيقاَ من الأغصَانِ

والطير ومن شقشقةِ الصنْج بكفَّ الحلْبةِ المحمومةِ

الأقدامِ، يمشى فى الشرايين دوارُ السُّكرِ من

عشْقٍ بدائىٍّ وإيقاعٍ لذيذْ

كإلهٍ وثنىٍّ نحتتْه راحةُ الموْجِ من الصخرِ

وغَّطتْه القبائلْ

بأكاليلَ من الزْهرِ، وأصدافٍ ومسكٍ ونحاسْ

ضمَّختْ معبودَها الغربىَّ بالطيبِ؛

عصيرٍ من بهارِ الشرقِ مشبوبٍ

بنيرانِ الحواسْ

وسَدّتْهُ هيْكلاً من شجر. الكاكاو والموزِ
وعرْشاً من جذوعِ الأناناسْ
قَدّمتْ قُرْبانها العارى لموْلاها
وغابتْ فى صلاةٍ جسديّةْ
فتغشّاها كموج البحْر فى ليلة مدٍ قمريّةْ
وانتهى العرسُ الطقوسىُّ القصيرْ
فتغنّى طائرُ الشعرِ الإلهىُّ بشمس العشقِ
واللذّةِ فى الصبحِ وطارْ
وتولىّ عائداً من «ملابارْ»
لسماء من مرايا قاتمةْ
فوق نهْر «السين» من سُقْم وقطرانٍ ودمٌ وغُبارْ
من ضبابِ الفحمِ والثلجِ وأسدافِ الظلامِ الأبديّةْ

*

عاودتْه فى أماسىِّ الكوابيسِ، وأوجاع الجسدْ
فى تخوم الرُّعبِ، والعزلةِ، والبردِ الضروسْ
جنّةُ الدفءِ الجنوبىِّ، وأطيابُ فتاةِ الأبنوسْ
آه لاتبكِ على نهدٍ من الجوْزِ ولاخَصْرٍ من العشبِ
ولا عُرسِ الطقوسْ

فهْو لن يجدى البكاءْ

لا ولن يجديك ما تسْطُرُ فى وجه الطروسْ

لا تذُبْ فى ندمِ النارِ صديقى

إننى ضيَّعْتُ ما ضيعْتَ من دفءٍ ومن ضوءٍ

ومن عشقٍ وريقِ

لم تُعِدْ حُرقةُ دمعِ الشِّعْرِ ما ضاعَ

من الحلمِ ومن شجْوِ البروقِ

آه لا تبحثْ عن الفجرْ

فلن تأتيكَ فى الظلمة آلاءُ الشروقِ

آه «بودليرُ» رفيقى

آه «بودليرُ» شقيقى

وجْهُكَ المحزونُ وجهى

جرحُكَ المحرور جُرْحى

وانتفاضُ الدمِّ فى أعراقِكَ السوداءِ

من نبض عروقى!

١٩٩٤/٨/٢٢

الكتابة

وردةٌ حمراءُ من غرس النجومْ

وشْوشَتْنى بشعاع عَبقىٍّ

قرَّبتْ خداً، وصدراً ناهدا

أتُراها ورْدةً أم نجمةً، أم غيمةً

فى قُزَحِ الشمس، تُراها،

أم غزالاً مستحيلاً واعدا؟

أَسَرَتْ عشَّاقها واستعبدتْهم واحدا

يسْبقُ فيها واحدا

كلما مدَّتْ يداً تأسرُنى

وجدْتنى – فى هواها –

ســــيدا

أسْبَلَتْ أجفانَها فى خَفَرٍ

ورمتْنى من كحيلِ الهُدُبِ

سهْماً صائدا

فإذا ملْتُ وقرَّبْتُ يدا

أقرصُ الخدَّ الحريرىَّ، أمُصُّ الشُّهْدَ من ياقوتةٍ

حمْراءَ فوق الشفتينْ

ولكى أرتادَ أصْقاعاً من الايماض والرؤيا، افتراع اللذةِ البِكْر، افتضاضِ السرِّ مختوماً بأهدابِ التويجْ

اعْترتْها رعْشةٌ نزَّتْ غبارا دموياً فوق كفِّى

غرزَتْ أشواكها الصلَّبةَ فى لحم الأناملْ

فإذا أنشبْتُ أظفارى بجلدِ البتلاتْ

أشْرعْت أظفارَها تخْمِشُ تفاحة قلبى

فيسيلُ الدمُّ محروراً، نثاراً من نجيمات، بقايا شُهب من مرْسلات الحلم والذكرى، وأشتاتا من الأوجاع، أنغاماً توراتْ فى خلايا الأفقِ حتى يتراءى كائناتٍ تتنزّى فى لهيبٍ عسلىٍّ من نزيفِ الشِّعرِ والوجد تُغطى عرْيَها بالكلماتْ

فإذا قُمْتُ لأمْحو أثرَ الجرْح، تمرَّدْتُ على عشقٍ من الإبهار والختلِ، من الإغْراء والدمِّ ..

دعتْنى

فَرَشَتْ من ذَهَبِ الشَّعْرِ وشاحاً فوق صدرى قطَّرتْ أضواءَهَا

فوق جراحى

ثم داوتْنى بعْطرٍ غجرىٍّ

أطفأت نارى بأقراصٍ من الشُّهدِ السماوىٍّ

سقتْ قلْبى بأقواسٍ من الغيم

طيوفاً

ونبيذاً

وندى!

١٩٩٤/١٢/١

علمُ مصر

حين شاهدتُه في سماء ضبابيةٍ
فوق أرضٍ غريبةْ
كان يخفِقُ في كبرياءِ الحسامْ
فاندفعْتُ إليه من الحافلةْ
وشققْتُ إليه جموعَ الزِّحامْ.

**

كان في وَجْهِه النيلُ،
وهو يشقُّ خريطةَ مصرَ،
وفي كفِّه القمْحُ، واللوتسُ السُّنْدسيُّ،
وناىُ النشيدِ ويقفزُ فوق السُّدود،
القناطر، في شهوةٍ لعناقِ السهولِ،
ويجــرى اشــتـيــاقــاً إلى قُــبــلـةِ الـبــحــرِ بـاهــرةً..
باهــرةً

تلك أرضُ العناقِ:
خريطةُ مصرَ التى كنتُ أرسمُها
من طفولتىَ الباكرةْ
بقعةٌ .. بقعةٌ من رؤى الذاكرةْ
كنت أصحو مع الطيرِ فى شجرِ السَّيْسَبانْ
تحت نافذتى، نسبقُ الشمسَ للشطِّ والنخْلِ
(كانت الشمسُ تعشقُ قدَّ النخيل، وتشرقُ من أفقهِ)
فالحقول سماءٌ من الخضْرة الموسميَّةِ
تخضَلُّ بالضوْءِ، تسْخو قطيفتُها الناضرةْ
حين كان النخيلُ على الشطِّ ينهضُ منتصباً
كالمسلاتِ فارعةً ... فارعةْ
وأنا عاشقُ الأشْرعةْ
كلَّ صيفٍ أجئُ إلى ظلِّهِ الأخضرِ الرَّطبِ
أنتظرُ الفيضانْ
كان يشْدهُنى فرحٌ حين يدْفَقُ بالقهوة الذهبيَّةِ،
والقمح والسُّفُنِ الوادِعةْ
من «رشيدٍ» تجئُ القلوعُ، على صهْوةِ الريحِ،
نحو الصعيدْ

ثم تْهبُط مُبْحرةً من أعالى الصعيد، على راحة الموج
نحو «رشيدْ»
كنتُ أرسـمُ مجرى السفينِ، وأنقُشُ كلَّ المراسى على ضِفَّتْيه
خريطـةَ عشقٍ تجسَّـدُ بالماءِ، والطمىِ، والطيرِ، والنخلِ والخضرةِ
الساطعة
كان قلبى يذوبُ كقلبِ الغمامْ
والشراعُ جناحٌ كبيرٌ يضوءُ – فى البعْدِ – مقترباً
كرفوف الحمامْ
وأظلُّ على حجر الشـطِّ حتى يسيلَ دمُ الشَمسِ من حـافةِ
الليـلِ
ثم أعودُ لقريتىَ الهاجعْة
فتعودُ السفائنُ بحـارةً يُنشـدونَ، وأضغاثَ أشْرعةٍ،
ومـجاديفَ من فـضـةٍ، وسـلالاً مـحـملةَ بالحـصـيـد تـراودنى فى
المنامْ.
وعلى شاطئ «التيمز» وحدى انتظرتُ قلوعَ الشمالْ
وبكيت قلوعَ الجنوبِ، فباكرنى فى الصباح الخريفى بارقُ
رَعْدٍ، وداهمنى مطرٌ من ظلام.
والضبابُ على هيكل الأفقِ يجْثمُ، لا شمسَ، لا قوسَ

من حزَمِ اللونِ مبلولَةٍ أسرةْ
لا ولا الفتياتُ الصغيراتُ من قريتى جئنَ يرقصْن غِبَّ المطرْ
حين شاهدتُ وجه بلادى على ساريةْ
وهو يخفقُ مستبشراً فى القتامْ
إنطلقتُ أشقُّ إليه جموع الزحامْ

**

كان فى وجهه وجهُ «مينا» بتاجينْ من حُمرةٍ وبياضٍ
على لوحِهِ الإرْدِوازْ
يستهلُّ مسارَ الخلودِ، ويبتدئ الفتحَ،
يرفعُ قلعةَ «ممفيسَ» من حجرٍ أبيضِ الوجهِ،
من مرمرٍ ورخامْ
وعلى اللوحِ «حوريسُ» صقرُ الألوهة،
كان يبارك مسعاهُ،
من فوقه كان «آتونُ» قرصاً من الذهبِ المتوهِّجِ،
تشرق «أمُّ الحضارات» من عيْنِه،
تتوالد أضواءُها فى مرايا السموات،
من نقْشةِ الأبجديةِ فوق كفوفِ المسلّاتِ،
فوق صدور المعابدِ،

أعمدةِ اللوتسِ المتعبدِّ،

من نُفثةِ السحرِ والشعرِ طيٌّ لفائفِ برْديِّها

في يدِ الكاهنِ المتهجِّدِ

من سرِّ أحجارِها تتأوّهُ تحت الأزاميل،

ينهضُ تاريخُها جسداً من رموزِ الكلامْ

تحت «مينا» و «حوريسَ» كانت به بقعةٌ من سوادْ

إنها الظلمُ جاءتْ به العرباتُ ذواتُ الخيولْ

إنها الانكساراتُ تقطر بالدمعِ والدمِ فوق سنانِ

الهزائمِ حطتْ على قرصِ «آتونَ» من قعقعاتِ الجيوشِ،

الأساطيلِ حتى انتهتْ عيْنهُ للأفولْ

إنها الحزنُ مدَّ عرائشةُ تتسللُ منها الظلالُ الكئيبةُ

ناعمةً في طقوس الجنازاتِ، دمع السواقي، وفي بحّةِ

الشدوِ في قصَبِ الناي، في غمغماتِ الشواديفِ،

ترتيلةِ الكروانِ، وسجْعِ اليمامْ.

حين جئتُ تأملتُه كان - رغم السوادِ - يرفرفُ

في كبرياءِ الحسامْ

كان زهرةَ نارٍ تطهَّرُ بالإحتراقِ وتصحو

من الموتِ تمسحُ عنها الرغامْ

حين حييتُه كان يعرفُنى

(منذ كنتُ أحييِّه وسْطَ صفوفِ الدراسةِ

منذ كنتُ أفديِّه وسْطَ صفوفِ الجنودْ،)

فتوقف عن خفقهِ فاتحاً صدرَه للعناقِ،

صعدْتُ على درجِ القصرِ فى لهْفةٍ،

والتقى عاشقانِ غريبان فى قبلة دامعةْ

واستطال بنا الوقت في موقفِ العشقِ،

طال المُقامْ

فكأنِّىَ روَّيتُ بالدمع غُلَّةَ صدرىَ من قهوة النيلِ

دفّأت جسمىَ بالشمسِ فى أفقه،

واحتميتُ بظلِّ النخيلْ

وكأنى احتضنتُ السفائنَ، والطيرَ، والأشرعةْ

وافترقنا على موعدٍ،

وهو يمسحُ أدمعهُ،

ويلوِّحُ لى بالذراع،

ويومىُ مبتسماً ... بالسلامْ!

لندن ١٩٧٨

ابتهالات

ترفَّقْ بنا يا إلهَ الجليدْ
وأنت تطرِّزُ بالنُّدفِ البيضِ فوق مرايا الخلاءً
رسوماً خرافيَّةً
كائناتٍ من الرُّعْبِ
تنهضُ بالظفْرِ والنَّابِ فى نوْمِنا
تتلظى بأحْشائنا وحشةُ الظلمِ والظلمات بمنفى العراءْ
ترفقْ ولا تطفئ النارَ فى موقدٍ للقُضابةِ،
والحطب المتكوِّمِ
إنْ تطفئ النارَ
لن تطفئَ الشررَ المتطايرَ فى حزم الكلمات
ولا اللَّهبَ المتصاعدَ فى راعفاتِ الدماءْ
فأعمدةُ الأفق وشَّحْتها بالبياض تساقطُ من حوْلنا

شجراً ميِّتاً كالبلادِ التى طاردتْنا

وصوتُ السُّقوطِ تناهى لأسْماعِنا من بعيدْ

صدًى يترجّعُ فى الصمْتِ

من ذكرياتِ العبيدْ

ترفَّق بنا يا إلة الجليدْ

فليس لنا فى سهولِ الجنوبِ

سوى وجهِكَ اللؤلؤىِّ الفريدْ

تنزَّلْ بآلاءِ فضَّيتكَ الناعمةْ

سنخبزُ أرْغفةً من دقيق الثلوجِ

على نارِ أفئدةٍ

يتسعَّرُ فيها الأسى والقُنوطْ

تنزَّلْ نديفاً من القطن

نغزِلُه بالأصابعِ والصبرِ

ثم نلمُّ الخيوْط

لننسجَ أغطيةَ الدفءِ والبعثِ

قبْل حنوطِ النهاية

قبل السقوْط

فهذا هو الموتُ يُرسِلُ عيْنيْه ترْصُدُ وقعَ الخطى

من كُوىً فى الصخورْ

سينْقضُّ فى مدنِ الرِّيحِ عاصفةً خاطفةْ

فإنْ حوَّلتْنا البرودةُ أعجازَ نخلٍ «بمرْجِ الزهورْ»

فأرْسلْ حياةً من الماء تدْفَقُ فى رعشاتِ الجذورْ

وأغلِقْ كوى الموتِ والغدْرِ فى جسدِ الصخرِ

كى لا نصيرَ حجاراً شواهدَ فوق القبورْ

فزيْتونةُ الأهْلِ قد تتمدَّدُ أغصانُها الخضرُ

فى أُفْقِك المتطهِّرِ

نأكلُ من ثمرٍ طيبٍ، نتشبَّثُ بالأفْرُعِ الوارفةْ

نعودُ لدفء التلاحُمِ يغْسلُ ما حَّط بالرُّوحِ

من وحْشةِ الظلْمْ والظلماتِ يمنفى العراءْ

فإن نَسِيتْنا الغصُونُ

ولم تمْحُ ما سَّطرتْه العداواتُ

فوق مرايا الخلاءْ

فليس لنا فى سهولِ الجنوبِ

سوى وجهِكَ اللؤلؤىِّ الفريدْ

فَرفْقا بنا يا إلة الجليدْ !

١٩٩٣/٣/٨

البستانى

- ١ -

زرعتُ حديقتى تيناً، ورُمانا
نثرتُ على مداخِلها مباسمَ فضةٍ
من ياسمين الحلُم أطواقاً وتيجاناً
غرستُ على حوافى السّورِ أعنـاباً
ولبـلاباً
وريحاناً
وأسكنتُ الزهورَ بها تويجاتٍ وأغْصاناً
فأشرق فى جوانبها
عبيرٌ أحمرُ الوجناتِ سكْرانا
تطلُّ الشمسُ باسمةً

علي شجر يمصُّ الضوءَ من أثدائها
ويُريقُه ظلاً مندًى بالشعاعِ
على حصى الفيروزِ، والياقوتً، والمرْمرْ
فيغدو الظلُّ ألوانا .
وأطلقتُ الطيورَ على هوادِجها
زرافاتٍ ووُحدانا
لتسكبَ في مسامِعها نشيد العشق للموْطِنْ
وسيمفونيةً يهتزُّ من أشواقِها المعدِنْ
فتنْبُتُ من براعمها صبايا الحورْ
ليسكنَّ الربوعَ الخضَر كالربَّاتْ
تزغردُ في مسالِكها نهيراتٌ من العَسَلِ
بحيراتٌ من اللَّبَنِ
تحلَّبَ سيْلُها من غيْمةِ الزَّمنِ
وتحرسُها رُقَى الكافورِ والبرْدي
وأحراسٌ من المرْدِ
وأحضانٌ من الزيتونْ

- ٢ -

أنا أرضعتُها فنى

أنا قد بْعتهًا عمرى بلا ثمنِ

أنا أسقيتُها الحكمةْ

أنا أسرى بأغْصنِها من السيقانِ للقمَّةْ

من الورْدةِ للكرْمةْ

بإبريقٍ من الفضَّةْ

أصبُّ العطرَ فوق براعم غضَّةْ

وأفرشها بأعشابٍ من الفكرْ

بسجادٍ غزلتُ خيوطه فى مِغْزلِ الفجْرِ

وأسكنُها مع الطيرْ

بحضن الماء والأشجارِ والسِّحْرِ

أدقُّ الطبلَ والأجراس

وأفتحُ بابها الذهبى

وأشهدُ أننى قد قلت للحراس:

– «يا حراسُ نادوا الناسْ
وخلوا طلعها للجيل بعد الجيل والأجناسْ
ليخلُد تحتها الانسان!»

- ٣ -

ونام الليْلُ فى حِضْنى
كعصفور بحضْن وليفهِ فى مخدعِ الغصْنِ
وجاءَ الصبحُ مذعوراً كفنانٍ بلا فنٍّ
صحْوتُ أدبّ فى الأحراشِ كالموتى بلاكفنِ
وأصرُخ أين مملْكتى وأين العصفُ والزيتونْ
وأين عيونُها النجلاءُ بالصهْباء واللَّبَنِ
وأين الزهرُ، والأطيابُ، والسُّكرً
وأين الظلّ، والفيروزُ، والمرْمرْ
وأين السورُ، والأعنابُ، والحراسْ
وحورياتُها الأبكارُ، والكافورُ، والأجراسْ
هوتْ فى كفٍّ إعصارٍ من الرمْلِ المدوِّمِ
والبروقِ، وعاصفِ الشررِ

تصبُّ عيونُه ناراً على باكورةِ الزهر
وتحرقُ كفُّه اللَّهْفى نهود الكرمةِ البكْرِ
مضى يأكلُ بستانى بأسنان من الجَمْرِ
ولم يتركْ سوى الصبارِ والنيرانْ
وجمجمةً لحسناءٍ بها كروانْ
كتابوتٍ ينامُ به قتيلاً هامدَ النبْرةْ
وعيناه المكحَّلتان قد غشيْتهما حسْرةْ
وفى منقارهِ الفضىِّ حباتٌ من الرُّمانْ!

- ٤ -

زرعْتُ حديقتى تيناً
وزيتوناً
ورُمَّانا
غرسْتُ على حوافى السُّورِ أعناباً وريحانا
بإبريقٍ من الفضَّةْ
أرشُّ العْطرَ فوق براعمٍ غضَّةْ
وأسكبُ فى مساربها نهيراتٍ من العسلِ

بحيراتٍ من اللبنِ
وأشهدُ أننى قد قلْتُ للحراسْ:
- «يا حراسُ نادوا الناسْ
وخلّوا طلعتها للجيل بعد الجيل والأجناسْ
ليحرُسَ ظلُّها الإنسانْ
كآياتٍ من القرآنْ»
فإن حديقتى كلماتْ
ولكن العيونَ غفَتْ ولم تسمعْ لأغنيتى
ونامتْ جنّتى كالكنز مخبوءا ببطن الأرض
وأغلق بابَها الحراسْ
ولم تُقرعْ بها الأجراسْ
وجاء الصبحُ بالإعصارِ والنيرانْ
ولم يتركْ سوى أعوادِ صبارٍ
تُظِلُّ عروقُها التابوتَ ترْثى جثَّةَ الكروانْ!

١٩٦٢

جوهرةُ الكونْ

هاهي الأرضُ دائرةٌ في بهاءِ الفضاء السحيق، ومن فوقها - في زوايا مكانٍ على ضِفَّةِ النهْرِ - أنظرُ منتشياً في مرايا الوجودِ ، العصافيرُ في شجرِ الصُّبْحِ تُعلِنُ عن صحوة الكائنات، نسيمٌ من النهرِ يمسحُ سُكْرَ النعاسِ عن الزهرِ ، إضمامةٌ من شعاعٍ يُجفِّفُ ما ران من فِضَّةِ القطر فوق الوريقات والعشب ، حشدٌ من المركباتِ يطيرُ، القطاراتُ مفتتحٌ للرَّحيلِ، السفائنُ بيضُ الشراعِ حمائمُ ومْضٍ على الماء، تبدأ ملحمة الخلق بالناسِ في طرق السعْيِ في العرباتِ على بُسُطِ الأسفلْتِ وفوق قناطرَ أقواسٍ من حَجَرِ الدهشةِ فوق الشطيْن، قواربُ صيدٍ ، حراسٌ ، عواماتُ بجعٌ ، وأنا أقضمُ الآن فاكهة النشوة السرمدّية في مقعدٍ قصبٍ فوق مقهىً ، أتأمَّلُ في كرةِ الأرْضِ الدائرةِ الآن تعومُ على ثبج من بخارٍ وريح ، يطوِّقُها الضوءُ والظلُّ والغيمُ ، أسأل : هل كلُّ أرضٍ بكل مجراتِ هذا

الوجودِ كأرضيَ مسكونةٌ بالبحارِ وبالناسِ والمرْكباتِ ، ومدْهونةٌ بضياءِ النهارِ ، ومصبوغةٌ برمادِ المساءِ ، وبالفحم في منجم الليل ؟ .. أسألُ : هل آدمٌ واحدٌ في الوجود على كوكب واحد ، والكواكب في كل هذي المجراتِ والسدُمِ المترامية الومْضِ خاليةٌ ؟ .. أتضاءلُ في مقعدي القصبيِّ أمام حقولِ الأسئلةِ المسنونةِ يُشعلُها في أحداقي الكونُ الفاتنُ . أرنو للأرضِ على لوحةِ حُلمْي وهي تدور فلا يثقلُها ما تحمل خلف جفوني أتذكرها كرة من نار أطفأها ماءُ الغيمِ وفاض بها . إنها كرةُ الماءِ والنارِ تلك التي تلدُ الورْدَ والعُشْبَ والعِشْق ، بوركْتِ .. بوركْتِ يا أمَّنا الأرضُ ، هل كوكبٌ في السماوات مثلك يا بيضةَ المعجزةْ ؟

أتساءل : كلُّ الأراضين مسكونةٌ أم هي الأرضُ ؟ .. إن تكنْ وحدها الأرض مسكونةً بالأناسيِّ ، مسكونةً بالبحارِ وبالريح والسَّمكِ – الضوءِ ، والزَّبدِ – الفضةِ المتقافز في بسمةِ الموجِ بالشجر – النسغ يصعدُ منها نوافيرَ من خُضرةٍ ، بالزهورِ لحوناً من اللون والعطر ، بالنخل يُلقي عناقيدَه للصغارِ ، ضفائرَه للنسيم وللضوء فهي زمرُّدةُ الكونِ ، معجزة الخصْبِ ، أيقونةُ الخلقِ ، بوركتِ يا أمَّنا الأرض . أرنو إليها على مرْمرِ الحلم تُكملُ دورتها اليوميَّة أو دورتها السنويَّة تحملُ أنهارا ، وقناطر ، سُفْناً ، أهراماً ،

وِدْياناً وجبالاً وصحارى ، بشراً أخياراً أشرارا ، حيواناً ، وحشاً ، حشراتٍ ، طيرا أسراباً ، أعناباً ، وزهوراً أبكارا ، وحضاراتٍ ، وتواريخ وأسرارا ، وقطاراتٍ ، وعماراتٍ ، وقلاعاً ، بيعاً ، وكنائسَ أبراجاً ، ومساجدَ أفواجاً تدعو ومحاريبَ .. أراها كوناً مأهولاً آخر هذى الكرةُ الأرضُ الجوهرةُ الأولى ، فكأنَّ الكون لها مخلوقٌ . بورك من أنشأها سكناً ، حضناً ، عشقاً ، أيقونة هذا الخلقِ المعجزِ من أجل الإنسانْ !

١٩٩٥/٤/١٥

كونشيرتو

افتتاحية :

كانت السُّحْبُ فى أولياتِ الشتاءْ
بجعاتٍ حيارى يسرْن الهويْنى
على ساحل الأفق
والشمسُ تسْحبُ خيطاً فخيطاً - بمنقارها -
من شبِاكِ الشعاعِ المذهبَّةِ الهائلةْ
فى بحار الفضاءْ

(يتكون الكونشيرتو الحديث (لا الكونشيرتو جروسو) من حركات أربع : الأولى : أليجرو Allegro وهي حركة طويلة سريعة . والثانية : أداچيو Adqgio وهي حركة بطيئة متهادية . والثالثة : سكيرتسو Scherzo وهى حركة مرحة استحدثها بيتهوفن بدلا من رقصة المنويت Menuet . والرابعة : روندو Rondo وهى حركة دائرية طويلة .)

تتساقطُ من صيدها بقعٌ من دمٍ

فوق غربِ السواحلِ

وهى تُحرِّكُ منها الجناح

تُسافرُ قبل حلُولِ المساء !

الحركة الأولى

Allegro

[فى بهوِ الليل الشتّوى على طاولةٍ بيضاءْ

كانت تتمدّدُ «ڤيولينةْ» ،

وعلى مقربةٍ منها كان «بيانو»

يجلسُ متكئاً فى الرُكْنِ صموتاً ومهيباً

حين افترّتْ شفتا الظلِّ الهابطِ في الأنحاء

عن بسماتِ الأضواءّ]

الڤيولينة : أى صمْتٍ حزينٍ كصمتِ الطلول !

البيـــانو : (لايرد) ... ...

الڤيولينة : كيف تصمتُ أنت وتهْذى الطبولْ ؟

البيـــانو : (لا يرد) ... ...

الڤيولينة : ربما عارضٌ من نعاسٍ ، صدى من نداءْ ؟

البيـــانو : كلا .

الڤيولينة : ربما عارضٌ من برودة هذا المساء ؟

البيـــانو : لا أستشعرُ برداً أو إعياءْ

الڤيولينة : هذه ليلة باردة ..

البيـــانو : حقا . لكنى أستدفئ بالحزن ..

الڤيولينة : إنما الحـــزنُ وشـــمٌ من النـــار أقســى على النفسِ من عاصفاتِ الشتاءْ

البيـــانو : إنه خَدَرٌ ناعمٌ كضياء المجرات ..

الڤيولينة : (مقاطعةً) أعرفُ ملمســه النـادى كأفـاويق الغيمــاتْ

تســبحُ فى أمــواج الأفـــقِ الآن طيـــوراً بيضـــاواتْ

يتســلَّلُ حبــاتٍ من رمــلٍ تسْـــفيها ريــحُ الأحـــداث

مــا إن يمتـلئ الصـــدرُ بهـــا حتى تغـــدو كثبـــانـــاً

أثقل من صخر المرتفعاتْ !

البيـــانو : إن كُثبانَ حزنى غلائلُ عطرٍ

أخفُّ علي القلب من قطرةٍ فى السُّحُبْ

تتطايرُ فى الريح مثل جناحِ الفراشاتِ

تلمعُ فى وحشة الروح مثل رماحِ الشهُبْ

الڤيولينة : هذه لذةُ الحزن ..

والحزن بوابةٌ هائلةْ

يعترشُ الكرمُ عليها بعناقيدِ نبيذٍ ذهبىْ

تنفتحُ على مسربِ ظلٍّ نحو الأعماق المظلمةِ

السوداءِ وهجعتها الكاملةْ

البيـــانو : أتشهىً نبيذَ الكرومْ ..

القيولينة : (مقاطعةً) إنما الحزنُ تفاحةُ الموتِ

فاحذرْ حلاوتها القاتلةْ

البيـــانو : إنما الموتُ تفاحةٌ

أتشهىً أن أقضمها الآنْ

وأنا أرضع من ضرع الكرْم

نبيذَ الحزن كطفلٍ ظمآنْ

القيولينة : ياللمسكينّ !

تفتِنُهُ الأوهامُ ، وتقتلُهُ الأحزانْ

(صمت) ثمَّة سرٌّ لا أدريهْ

ينْخُرُ فى أحشائكْ

كقوافل دود القبرْ

لِمَ لا تخبِرْ ...

البيـــانو : (مقاطعاً) إنى أُبْقيه لنفسى هذا السِّرْ

[صمتٌ يتميز غيظا]

القيولينة : (تنتفض واقفةً)

لن أبقى فى هذا البهو الصامتِ كالمِقْبرةِ الفرعونيةْ

البيـــانو : (مأخوذاً) مِقْبرةُ فِرْعونْيةْ ؟

الڤيولينة : أسرارٌ غامضةٌ خرساءْ

ودهاليزُ حلزونيَّةْ

جدرانٌ مائلةٌ حدْباءْ

وجرانيتٌ باردْ ..

البيـــانو : فى الخارج يهبطُ ليلٌ شتوىٌ

يتمطى فوق شوارعنا الباهتةِ الصفراءْ

والبهْوُ دفِئ ..

الڤيولينة : إنَّ عباءة ثلج الليلِ الشتْوىْ

أدفأُ من مِدْفأةٍ فى هذا القبرِ الوحْشىْ

فأْذَنْ لى ..

البيـــانو : فجأةً هكذا تخرجينْ ؟

الڤيولينة : (صائحةً) إنى أمقتُ رائحةَ الموْتْ

البيـــانو : رائحةُ الموتْ ؟!

إنى حىٌّ مازلْتْ

الڤيولينة : بل إنَّكَ ميْتْ

وجهُكَ جُمجمةٌ ، عيناك هما الثقْبانْ

وقوامُكَ تابوتٌ خشبىْ

وثيابُك أكفانْ

البيـــانو : قد تمطرُ هذى الليلةْ ..

الڤيولينة : سأغنىِّ تحت الأمطارْ

للقمرِ الثلجىِّ ، وللأشجار

المبلولةِ ، مسترسلةِ الشَّعْرِ

كالفِتْيانِ الشُّقْرْ

أتمشَّى فوق تلالِ العشبِ المزْهِرْ

أعزفُ للسابلةِ المحزونين وللأطفالِ المحرومينَ

وللعشاقِ ، وللأزهارْ

أمَّا أنتَ فَمِتْ وَحْدَكْ

البيـــانو : من يدْفننى ؟

الڤيولينة : ابحثْ عن حفارِ قبورْ

البيـــانو : لا يشهدُ موتى إنسانْ ؟

الڤيولينة : قد عشْتَ وحيدا

فتمدَّدْ فوق الطاولة البيضاءِ كذئب مقهورْ

وتعفَّنْ وحدَكَ في هذا البهوِ المقرورْ

البيـــانو : لا أذكرُ أنى أغضبتُكْ

الڤيولينة : كلا . لم تغضبْنى

البيـــانو : فلماذا تنقضِّين علىَّ كنَسْرْ ؟

الڤيولينة : (تُقلِّدُه) إنى أُبْقيه لنفسى هذا السِّرْ

البيـــانو : آهٍ .. هذا ما أشعلَ فيكِ سُعارَ الغضبْ

الڤيولينة : الآن فهمتْ ؟

تتهرَّبُ من أسئلتى

وكأنى كنتُ شجيرة تينٍ شوكىٍّ

تُلقى بالشوك على صفصافةْ

البيـــانو : لم أرغب فى أن أشغل قلبك بالحزْنْ

الڤيولينة : بل تُبقيه سراً حتى تستحلبه فى شغفٍ مجنونْ

كالمدْمنِ يستحلبُ مضغةً أفيون

فابْق وحيداً لتفوزَ بُحلمكْ

البيـــانو : (فى ضيق) ما أتعسه من فوزْ

الڤيولينة : فلماذا صرْتُ شجيرة ليمونْ

تُلقى بالثمر الحمضىِّ على هودج لوْزْ ؟

البيـــانو : بل أنتِ شجيرةُ كرزْ

وأنا مأفونْ

الڤيولينة : لا . بل محزونْ

تُحرِقُكَ الأسرارْ

البيـــانو : فابْقىْ حتى نتسارْ

(تجلس)

الحركة الثانية

Adagio

الڤيولينة : هل يطولُ انتظارى ؟

البيـــانو : لا سرَّ عندى لأحكيه غير المخاضِ :

الصواعقُ ترسمُ بالبرقِ وجْه الخرائطِ

فى كرةِ الأرضِ ، رعْد الزلال قد تتفجرُ منه البراكين

تحفرُ أنهارَها برتقاليةَ اللون فى وارفاتِ السهولِ ،

أتحرقُ أشجارنا الخضرَ ، تغرسُ من تحتها خشباً لامعاً

عُمُداً من جرانيت ملساءَ ، أم ستروِّى بساتيننا

بدم اللهب المتسعِّرِ ، هل ستكون الثمارُ

حجاراً ملونةً أم مخازنَ للضوءِ ، والمسْكِ ، ناضرةً

كالخرافةْ ؟

كان نهرُ البراكين بالأمس يحفرُ مجراه بين هضابِ

الحصونِ القديمةِ ، يحملُ فجراً لأبراجها ، ولأجراسها

من صهيلِ فروسيةِ العدْلِ والحلمِ أنشودةً كالسلافةْ
أيغنى الفوارسَ أغنية النارِ كالأمسِ ، أم يتغنىً
غداً بنشيد الصّرافةّ ؟!
أم تموتُ الحرائقُ فى سُرَّةِ النهْر ، تولدُ من طينه
لغةٌ من توابلَ حَرِّيفةٍ ، وتطيبُ الحرافةْ ؟

الڤيولينة : ليس هذا زمان الحرافةْ

البيـــانو : المخاض يؤرقنى، والخفافيشُ تخرج من ظلمات المغاور
فى وضح الصبح جرْحا ، رماحا مسممة ، تتمسَّح
بالضوء يعشى بصيرتها، يتخبط طقس اغتيالاتها
للشموس لتوقف سيل الزمان المدمدم، يرتدُّ تيارُه نحو
صخر الشقاق القديم ويُغرقنا فى وجولِ المسافة

الڤيولينة : كلُّنا نهبَ هذى المخافة .

الحركة الثالثة

Scherzo

البيـــانو : كل شىء يصيرُ إلى غيره الآن

الفيولينة : إنها دورةُ القرنِ تبدأُ رحلتها

قادوساً فى ساقيةِ الزمنِ الموَّارةْ

البيـــانو : ولهذا تهطلُ فى غابة نفسى أمطارُ الحزنِ

كمنطقةٍ حارَّةْ

الفيولينة : قد تأتى أيامٌ سارَّةْ

البيـــانو : من أينَ تجىء ؟

الفيولينة : آهٍ .. هذا الحزنُ الداكنُ مثل فراءِ الليل

يتفجرُ من نبعٍ آخرَ في كهفِ ضلوعِكْ

لم تصْدقْنى القولَ إذنْ .

البيـــانو : قد بحتُ بما عندى

الفيولينة : مازالت طيرٌ وحشيَّةْ

تفقسُ فى أعشاشِ ضلوعِكَ أفراخاً سوداء

البيـــانو : أصداءُ طفولتى الغاربة الشوهاء

الڤيولينة : بل شىءٌ آخرُ ، فاصدقْنى القولْ

البيـــانو : تأسرنى فى مخلبها ذكرى

الڤيولينة : (هامسة) ذكرى حبْ ؟

البيـــانو : ذكرى موْتِ الحب

تنقُبُ حبَّةَ قلبى كمناقيرِ الطيرْ

فتفورُ نوافيرُ الدمِّ الطازجْ

الڤيولينة : ياللقلب الساذجْ

فى قسوةِ هذا العالم يبكى حباً ماتْ !

البيـــانو : لا يُحتقرُ الحبُّ سوى فى زمنٍ فاسدْ

الڤيولينة : حقا . لكن العالمَ مملوءٌ بالفتياتْ

البيـــانو : مملوءٌ بالفتيات لمن يستبدلُ بالحبِّ / الفردوسِ الضوئىِّ جحيمَ الشهوة

الڤيولينة : أولا تتشهَّى جسدَ الأنثى الناعمةِ الحلوةْ ؟

البيـــانو : أتشهى كلَّ تفاصيلِ الحسْنِ الفاتنْ

لكن الحبَّ سماءٌ لا يبلُغها ماءُ النزواتِ الشبقيَّةْ

الحبُّ لقاءُ نجومِ الأرواحِ الذهبيَّةْ

نظرُ الذاتِ إلى مرآةِ الذات الأخرى

فإذا وجدَتْ فيها صورتها اشتعلت جذوةُ

هذا الفرحِ الأسمىْ

الڤيولينة : ما أصدق هذى الرؤية لكنْ

أو لم تكُ من تهوى محْض فتاةْ ؟

البيـــانو : كلا . بل كانت ومضاً ، نبضاً ، شجرةْ

الڤيولينة : وتزوَّجت الشجرةْ

معشوقاً آخرَ بالطبعْ

البيـــانو : كفِّى عن سُخريتكْ

الڤيولينة : هذا حدثٌ مكرورْ

البيـــانو : ولهذا أصمت لا أُفشى سرِّى

فيقولُ الناسُ عنيدٌ مغرورْ

بل يهْجُرنى رُفقائى فى برْدِ الديجورْ

الڤيولينة : (باسمةً) أتظنّ بأنى لا أعرف هذا السرّ ؟

البيـــانو : منْ أخبرَكِ ؟

الڤيولينة : صوتُ الحدسِ الثاقبْ

البيـــانو : يا لك من ماكرةٍ

وتوصلْتِ بهذا الحدسِ الى موتِ فتاتى ؟

الڤيولينة : كلا . هل ماتت ؟

البيـــانو : حصد البستانَ الأخضرَ حصَّادُ الموت

في مطلع فصل الإثمارْ

الڤيولينة : هذا سرُّ الأسرارْ

ولهذا لا تخشى الموت

البيـــانو : الموتُ لديَّ هو الحبْ

الڤيولينة : ممتلىءٌ أنت بحبٍّ الأرضِ

وحب النشوةِ والخصبْ

والموت لدْيك حنينٌ للبعث ووعدٌ بلقاءْ

لا شوقٌ لفناءْ

البيـــانو : هو ذاك .

الڤيولينة : يا لك من قلب نادرْ

أندرُ من أنقى أنواعِ الماسْ

الحركة الرابعة
Rondo

الڤيولينة : قد أوغل هذا الليلُ بنا نتسامرُ فى الأحزانْ

البيــــانو : إنى أسمع ديكا يستحرُ الآن

الڤيولينة : استعرْ نغمةً من هديلِ النجومْ

كى نحيَّ قدومَ السَّحَرْ

البيــــانو : النجومُ توارت وراء الغيومْ

الڤيولينة : وتوارى قلبُك خلف غيوم الذكرى

وشَّحتْه غلائلُها بحرير الوفاءْ

وأنا أُكبرُ فيه ثبات الولاءْ

لكنَّ الميلادَ الأخضرَ من سننِ الكونْ

البيــــانو : ماذا تعْنيْن ؟

الڤيولينة : ما الوجودُ سوى دورةٍ للتجددِ والإخضرار

رحمُ الليل يُسلخُ منه النهارْ

والربيعُ جنينُ الشتاءْ

البيــــانو : أعرف هذا .

القيولينة : ما أكثر ما تعرف لكنك لا تُلقى بالاً

أنت تخشى التجدُّدَ بينا تراقبُ هذا المخاضْ

البيـــانو : كلا . بل إنى أخشى عثرات الإجهاضْ

أو أن يأتى الطفلُ مسيخاً شائه

القيولينة : قد يأتى طفلاً ذهبياً متشحاً بالشمسْ

لكنك تسقطُ فى نهر الحزنِ فلا تُبصرُ إلا الأجداثْ

البيـــانو : لِمَ نستبقُ الأحداثْ ؟

القيولينة : ليس مخاضَ الميلادِ الكونى عنيْتْ

بل أعنى أن تتجدَّدَ أنت

إمَّا أن تتجددَ أو تفنى

البيـــانو : إنى اخترتُ الموتْ

القيولينة : لكنك حىٌّ مازلْتْ

قد يمتدُّ بك العمرْ

تتأرجحُ بين حياةٍ وممات

فاحزمْ أمْركَ واختر أحدَ الضدّيْن

الإخضرارَ أو الانتحارْ

البيـــانو : لست بقاتلْ

حتى تأخذنى طرقُ الأشرار

والحزنُ طريقى للموتْ

الڤيولينة : اخترت طريقَ الأحياء الأمواتْ

أشباحِ الظلِّ المترنحةِ الخطواتْ

ما بين حضورِ الحياةوبين انسحابِ الرفاتْ

(بصوت عال) هذا تعذيب للذات

استسلامٌ لجراثيم الهدم النَّهمةْ

تنهشُ فى متواشجِ أعضائك

حتى لا تترك بعض فتاتْ

والكون صراعُ الأضدادِ الوحشىِّ وإنفاذُ ارادةْ

لا استسلامُ جذوعِ الأشجارِ الصفراءِ الهرمةْ

البيـــانو : ألسانٌ هذا أم خنجره

وعلىَّ تخيُّر أىِّ الحدَّيْن؟

الڤيولينة : تقسو أنت على نفسكَ أكثر مما أقسو (بعد قليل)

لا مفرَّ من الاختيارْ :

التجددُ أو الاندثارْ

البيـــانو : فلأ تجدَّدْ .. لكن كيفْ؟

الڤيولينة : (هامسةً فى رقة)

سوف يزدحمُ الأفقُ بالسحْبِ

مثل ازدحامِ المرافىء بالأشرعة

وستصبحُ مُزْنا وتمطرُ ..

فاغسلْ فؤادك من عَفَنِ الحزنْ

طهرّه بالماء .. ماءِ المطرْ

البيـــانو : فإذا شتَّتَ السحبَ ريحُ السحرْ ؟

الڤيولينة : إن ماء النهرْ

مطرٌ ، فاغتسلْ بمياهِ النهَرْ

البيـــانو : أو يغسلُ ماءُ النهرِ الأحزانْ ؟

الڤيولينة : لِمَ لا ؟

البيـــانو : قلبى قطعةُ فحمٍ حرقَتْها النارْ

فإذا لامسه الماءُ تفتَّت مثل حصاةٍ من طينْ

الڤيولينة : لو أشعلْنا فيه نارَ الحبِّ توهَّجْ

البيـــانو : لم تنطفئ النارُ به يوما

الڤيولينة : لا يشفى حبُّ الموتى إلا حبُّ الأحياءْ

البيـــانو : ماقصدكِ بالأحياءْ ؟

الڤيولينة : فَتِّشْ فيمن حولك عن قلبٍ يهفو بالحبِّ

البيـــانو : إلىَّ ؟!

الڤيولينة : نعم .

البيـــانو : كُفّى عنّى سُخْرِيَتكْ

ماذا يجدُ العاشقُ عندى إلا الجمرْ

هل يلدُ الجمرُ بقلبى أحلاماً خضراءْ ؟

الڤيولينة : لو لامس طيرُ النسيان فؤادك

لانفجرتْ فيه ينابيعُ زرقاءْ

البيـــانو : طيرُ النسيانْ ؟ .. من قال بأنى أنسى ما كان ؟

الڤيولينة : ما خُلقْتَ لغير الغناءْ

فاعزفْ الآن حزنَك هذا المدمّرَ ..

قد يمنحْ العزفُ بعض العزاءْ

البيـــانو : ليس هذا زمان الغناءْ

كنت أصدحُ وسْط الجماعة فى دفء أنفاسها

كيف أعزفُ وحدَى فى وحشةِ الاغتراب / الجفاءْ ؟

نحن فى زمن السوق والبورصةِ ..

النثرِ ، والفردِ ، والانكفاءْ

الڤيولينة : أنت أوركسترا كاملة

فابتدئ بخلية لحنٍ شجيٍّ تصاعدُ منه الضفائرُ

نحو ذرى هائلةْ

كلُّ مطرقةٍ منك فوق الوتر

تتخلَّقُ قطرةِ ضوءٍ تساقُط مسرعةً ثم تولدُ أخرى

فأخرى ، وينهمرُ الضوءُ مثل المطرْ

البيـــانو : لا .. لست أوركسترا

ما أنا إلا «فردٌ» ضائعْ

الڤيولينة : فلنتحاورْ فى سوناتا الفجر الطالعْ

البيـــانو : بل أُخْلِدُ للنوم لعلىِّ أَلقْى فى سبحاتِ الحلم الرائعْ

أحبابى الموتى

الڤيولينة : (صائحةً) دعْنا من ذكرِ الموتِ

إنك ممتلىءٌ بالعالمِ حتى الحافَّةْ

البيـــانو : كالكأس المملوءةِ بالدَّمْ !

(صمت يتميز غيظا)

أو ليست أجفانُكِ مثقلةً بالنومْ ؟

الڤيولينة : (لا ترد) ... ...

البيـــانو : ما أطولَ هذا الليل على قلبِ المجروحِ وقلبِ الملولْ

الڤيولينة : (لا ترد) ... ...

البيـــانو : أىُّ صمْتٍ حزينٍ كصمتِ الطلولْ !

الڤيولينة : (لا ترد) ... ...

البيـــانو : كنا نتكاشفُ مثل رفيقينْ قديمينْ

وأنا لم أخطئْ

الڤيولينة : (لا ترد) ... ...

البيـــــانو : لستُ بجلفٍ يلغو فى لفظٍ جارحْ

لكنَّ الصِّدْقَ له وجهُ كالحْ

أنت أردتِ الصِّدْقْ

الڤيولينة : (لا ترد) ... ...

البيـــــانو : ثمَّة سرٌّ لا أدريه .. وسأعرفُ هذا السّر

الڤيولينة : لن تعرفه أبدا .

البيـــــانو : لستُ غبيًّا

الڤيولينة : أعرفُ ، لكنك تسقطُ فى ذاتك مثل حصاةٍ فى بئرْ

البيـــــانو : أذكرُ أنك قلتِ كلاماً عن حبِّ الأحياءْ

الڤيولينة : ما أكثر ما قلتُ ولم تسمعْ

البيـــــانو : من ذا يعشقنِى ؟

الڤيولينة : فكرِّ

البيـــــانو : أخشى أن يكذبَنى الحْدسُ فأجرح جرحاً آخر .

وأنا تمثالُ جراحْ .. لا يشفيه إلا الموت

الڤيولينة : (بلهفة) أتموتُ ، وتغربُ من هذا العالمِ شمساً

من غير صباحْ ؟

البيـــانو : إن لم يكذبْنى الحدسُ .. فأنتِ

الڤيولينة : حدْسُكَ صائبْ

البيـــانو : هذا سرُّ الأسرارْ

أو تعشقُنى لؤلؤةٌ تتوهَّجُ بالأنوارْ

وأنا خيمةٌ من فراءِ الظلامْ

تتناثرُ فى قبضةِ الريح دوامةً من غبارْ ؟

الڤيولينة : الحبُّ كتابٌ مسطورٌ ، قدرُ الأقدارْ

البيـــانو : كدوامِ الفلكِ الدوَّارْ

وكما يتدفقُ عذباً ماءُ الأنهارْ

نحو الظلماتِ الملحية فى قاعِ البحر .. ولكنْ

الڤيولينة : دعنا من لكن ..

البيـــانو : وردةُ قلبكِ ناضرةٌ

تحتاج إلى نبع ناضرْ

وأنا قلبٌ أسيانْ

الڤيولينة : لن يغسلَ منه سوادَ الأسى

غيرُ ماء الفرحْ

ويطهرْهُ بأريج الحنانْ

البيـــانو : إنى ...

الفيولينة : (مقاطعةً) صمّتاً .. أرجوك .. لا تبخسْ قدْركْ ..

انهضْ من نعْشِ رمادِكْ (بعد قليل) اسمعْ

تلك اوركسترا من عصافيرَ تصدحُ فى شجر الشمس

البـــانو : حقا .. وانظرى

بجعاتِ السحابِ تطيرُ إلى قمة الأفقِ

تشربُ من نهر الضوءِ الكونيِّ الناصعْ

الفيولينة : وشعاعٌ من الصبح طفلٌ ضحوكٌ

يكرْكِرُ فى النافذةْ

فابتدئ. بخليةِ لحنٍ شجىْ

نتحاورُ فى كونشيرتو الفجر الساطعْ

(يبدآن عزفاً هامسا بمصاحبة العصافير يتصاعد إلى

«كريشندو» شيئا فشيئا)

١٩٩٤/٥/٢٥

فاكهةُ العشقِ

إن قلبى يسكنُ الشِّعْرَ،

لماذا تبحثين الآن – فى صدرىَ –

عن رُمَّانةِ العشْقِ الصبىْ؟

ذات يومٍ كان عُنقوداً من الوردِ النَّدِىْ

كان نبعاً من مزاميرَ

تُصلىٍّ بقوافيها العصافيرُ

بمحرابِ البهاءِ المرْمرِىْ

ولكم غنَّى لأهدابكِ

وَطفاءَ

كأعشابٍ على فيروزِ نبع مخملىْ

أنتِ قد أشعلْتِ فى شِريانِهِ

غُصصَ النار فلم نبْقَ به غيرُ الرمادْ

وأنا بعثرْتُه فى الريح جُرْحا لمْلَمتْ أطرافَهُ

نــازفـــةٌ من صُوَرِ الشِّعْرِ شُـــواظاً يتلظى فى احتدامــاتِ

البــراكـين، انـدفـاقـاتِ الـدَّم الـداكنِ شــلالاً من الـنــجـوى،

وأمطارا من الحزْنِ الصموتِ الأبدىْ

فلماذا ترْجعينَ الآن فى غيرِ معادْ؟

ولماذا تنبُشينَ الآن – فى صدرىَ – عن رمانةِ

العشْقِ الوضىْ؟

إنه يسْكنُ نهْرَ الشِّعْرِ،

مدِّى كفَّكِ الآن إلى موْجِ اللهيبِ العصبىْ

إن تُريدى أن تُلاقيه، اطرُقى فى الصَمتِ أبواب القصائدْ

ربما يُصْغى إلى طرْقكِ من بُعْدٍ قصىْ

ربما يفتحُ باباً

ربما يرْنو إلى وجْهِكِ يا شمسَ البهاءِ الذهبىْ

من شبابيكِ المزاميرِ الشجيةْ

ربما تلقيْنه رمْزاً، فضاءً من خيال وارفِ الظلِّ

تخفىَّ فى تراتيل المجازاتِ استعاراتٍ من الأقنعةِ

الكونية، الأضدادِ، من وجْدٍ وحقدٍ، من شظايا

فى جناح النجم، أصداءٍ من الغيمِ، اعتراشِ الخصبِ

في الوديان، وهجٍ من حريقِ الجدب، ايقاعٍ من الترحالِ
في القاع إلى محمومةِ الرؤيا، اشتعالاتٍ من الحسرةِ والنسيانِ
والذكرى وقد تلقيْنه قافيةً،

حرفَ رويْ

أنْتَ تأتينَ له الآن بوجْهِ الفاكهةْ
خطرتْ في الغُصْنِ في غير أوانْ
لن تُلاقى منه أضغاث حنانْ
ربما يُحرِقُ منكِ الكفَّ هذا الشعْرُ،
هذا النهرُ من نارٍ، وصخرٍ، ودخانْ
فلماذا تبحثين الآن عن هذا السُّعارِ اللهبيْ؟
ولماذا تنبُشين الصدرَ عن رُمَّانة العشقِ العصيْ؟
لا تثيرى غضبةَ الريحِ بكثبانِ الرماد!

١٩٩٥/٢/٩

أشرعةُ الغيمةِ المضيئة

هاهوَ البحرُ يبدأُ تاريخَه من لقاءٍ حميمْ

من عناقِ الهواءِ الموشحِ بالزرْقةِ المُخْمليَّةِ في منْتهى الأفقِ

والماءِ

يبدأُ أسفارِه من أقاصَى الجهاتِ إلى صخرةِ الشّطِ تغسلُني

فوق أطرافها موجةٌ من نسيمْ

يتراقصُ برقُ المرايا على ثَبَجِ الغمْرِ، تعلو على الأفقِ زغرودةُ

الريحِ والضوءِ، يولَدُ زهرٌ من اللازوردِ وتركضُ خيلٌ من الياسمينْ

تتفتَّتُ أعرافُها كلماتٍ على الرّملِ أقرأ في سرِّها كلَّ ما يقرأ

العازفُ المتفرِّدُ في شفراتِ الأهازيج، ما يقرأ الطيرُ في لوحةِ

الفجْرِ، أقرأ سفْرَ الحضاراتِ والبشرِ الغاربينْ

أتراجع في زمن الكونِ ذاكرةً تتفلّتُ من أسْرِ هذا الحضور إلى

أول الوعى، تأخذنى سِنَةٌ من نعاسٍ / رأيتُ الحضاراتِ يرْضَعْن فى ساحلى لبَنَ الفجر من ثدى جميزةِ النيل حتى استحالت شموساً مضوِّئةً، ورأيتُ الشموس تطير بأجنحةِ الضوءِ عند الأصيلِ تحطُّ على ساحل الغَربْ، ثم رأيتُ وحولَ الظلامِ تساقُط فى ثمرِ التينِ حتى استحال حصىً ميِّتاً من ترابٍ وطينْ.

استمع أيها البحرُ لى فأنا أرجعُ الآن من رحلتى فى السنينِ

استمع لى فإنى حزينٌ .. حزينْ

والسفائنُ قادمةٌ حوْلها تتصايحُ نوْرسةُ العِشْقِ تصطادُ أفئدةً

من صدورٍ مولَّهةٍ بالحنينْ

دلَّنى أيها البحرُ كيف أُعيدُ طيورَ الشُّموسِ إلى عُشِّ جُمَّيزةِ النيلِ، هل أترحَّلُ فى موجةٍ للبلادِ البعيدة، أنزلُ فى مرفأً أخضرٍ يتقافزُ تحت دواليه سِربٌ من الظَّبَياتِ على السَّاحلِ الآخر الرْطبِ تُدْفئُنى رَشْفةٌ من شفاهِ النبيذِ، وتُمْطِرُنى غيمْةٌ من عيونٍ كزرْقةِ هذا المزيجِ من اللازوردِ السماوىِّ والماءِ، يُسْكِرُني الرَّقصُ والخمرُ حتى أنامَ على هُدْبِ ساريةٍ وأعودُ / أترجعُ طيرُ الشموسِ إلى العُشِّ فى جَعْبتى؟ دلَّنى أيها البحرُ إنى أتيْتُكَ منقسماً يتباعدُ شِطراىَ / هذى السفائنُ مبحرةٌ، ونداءُ السفائنِ يُبحرُ في موْجِ صدرى؛ أأتْبَعُ هذا

النداءَ اتِّباعَ النوارسِ للغمرِ، أم سيفاجئُنى الموتُ كالقرْشِ يفجأُ قارب صيْدٍ قديمْ؟

دُلَّنى أيها البحرُ، أم أنت منْشغِلٌ بالرحيلِ تُعِدُّ الحقائبَ والسَّمكَ المتقافزَ للسفن، هل أستقلُّ السفائنَ أو أتشبَّثُ بالصخرةِ الساحليَّةِ مُتَّكئاً لا أريمْ؟

دُلَّنى أيها البحرُ هل أتلفَّعُ بالصوف، صوف «النصوصِ القديمة» أقْبعُ فى خيمةٍ عند بابكَ، أبحْرُ فى موجةٍ من رمالٍ إلى الأمسِ أملأُ رحْلِى بتمرْ قديمٍ، وأوعيةٍ من حليب الشِّياه، أشدُّ الرِّحالَ لقصرِ الخلافة أو أرْتمى فى مياهكَ أغْسِلُنى من فحيح الرِّمالِ ومن صدأ القْيظ فى سافياتِ الهجير، وأغسلُ فضة قلبىَ من طينةِ الأمسِ؟.. لكنَّ فى الأمس نجما تسيلُ جداولُ أضوائه فى شرايين أشجارِ روحى، فكيف اغتسالى من الضوءِ بالماءِ؟ قلْ أيها البحرُ، إنى على صخرتى منْصِتٌ، لا ترُغْ فى الصهيل المسافر، فى صخب العابراتِ من الفُلْكِ، فى نزقِ السابحاتِ الجميلاتِ فى نزْوةِ الصيْف، إنى سأقرأ ما يرسلُ الموّجُ من مفرداتٍ مفضَّضَةٍ رسائلَ بوحٍ لعشاقهِ الوالهينْ.

هل تقولُ السَّفائنُ مرَّت وأنت على صخرةٍ تتآكلُ كالجُرْفِ فى

صهْدِ عافيتى؟ لسْتُ فى حاجةٍ للسفائنِ...

- «إنى حملْتُ شموسَ الحضاراتِ من أفْق شطِّكَ فى بُرْجِ صاريِّها، ثم غرَّبْتُ ...»

أنتَ؟ وتعترفُ الآن؟.. إنَّكَ - لا شكَّ - أغويْتَ طيرَ الشموسِ بأسماكِكَ الذهبيَّةِ، بالطحْلبِ الغض، باللازوردِ تخطَّفَهُ الموْجُ من زهرِ هذا الهواءْ...

- «بل قراصنةُ السُّفْنِ والجندُ..»

كم فى غياهبكَ الشَّبحيَّة من صُرَرِ

السِّرِّ تكتُمها فى قرار مكينْ.

أأعدُّ رباطاً من الخيلِ، آتيكَ فى هالةٍ من جنودٍ كتائبَ غزْوٍ - ونحرقُ من خلفنا السفنَ - نعبُر غمْرَ المضيقِ فتحملُنا فى مقاصيرِكَ القزَحيَّةَ، نفتتحُ المدنَ السَّاحليَّةَ أو نتفرسُ فى أوجه السُّفنِ نقتنصُ الغاصبينْ؟

- «لستَ فى زمنِ الغزو والفتحِ..»

كيف السبيلُ إذن أيُّها

السيِّدُ البحرُ، هل أتخلَّصُ من ضوءِ أمسى، وأنزعُنى من صحائفِ رمْلِ النخيلِ، ومن خَصْرِ جميزةِ النيلِ غصْناً جموحاً

يهاجرُ نحو الشموسِ، ويغرسُ جذراً له في بساتينها يتطفلُ لبلابةً تتسلَّقُ بُرْجاً من السنديانِ، يزيلُ ملامحَ وجهٍ قديم بثلجِ الشمال، يدورُ بدوامةِ من غيابٍ إلى غير مارجعةٍ...

– «إنه هربُ اليائسين!»

دلَّنى أيها البحرُ كيف أجمِّعُ أشلاءَ

ذاتى، أعيدُ طيور الشموس ترفرفُ فوق غصونِ مجرَّاتنا؟

– «لا تقعْ تحت أظلافِ يأسِكَ، لا تغتربْ فى زمانٍ قديمٍ يعششُ فى جزرِ الصخرِ تحرقها سافياتُ الهجير، ولا تغتربْ فى غدٍ ليس من فجرِ شمسِكَ، أشعِلْ قناديل قلبكَ من نجمة الأمس، واقطعْ هضابَ السمواتِ والأرض بحثا عن الطير كى لا تظلَّ شموسُك فى الآفلينْ.»

أأطيرُ إلى ساحرِ الغربِ كي أستردَّ طيورى المضيئةَ؟ أهْوَ يفتحُ أقفاصَهُ فتطيرُ إلى عشِّها أم يخبئُها في الجرابِ؟ أيكنزُ أسرارَها في مغارةِ أضلاعه أم يخبِّئُها فى اخضرار المرافئ والأعين الزرْق من ساقياتِ النبيذ .. الغزالاتِ يرتعْن في شهوةِ الشاربينْ؟

–«لا تطاردْ غزال المرافئ طارد غزالة شمسكَ، يهْديكَ مافى

الوفاضِ من الضوء إن خلاياه في وَهجِ تلك الشموسِ الهجينْ.»

فإذا أنكرَ العارفونَ انتسابي «لآتونَ» أو «للهلال القديمِ» أأسرقُ بالقصبِ الأجوفِ النارَ من كيرِ «هيفاسْتَ»(١) في غفلةِ الحارسينْ؟

- «بل أضيءُ من توقدِها شمسَكَ المطفأةْ..»

أَعطني خاتماً من كنوزِكَ نقشاً به يعرفُ المنكرون انتسابي لمملكةِ الشمس..

- «إني سأشهدُ - في ساحل الغرب - أنك من نسْلها «الخالقينْ»

ربما كنتَ تمكرُ بي فأجعلْ الآنَ لي آيةً أيها البحرُ

- «ابسط يديْكَ لأعطيكَ لؤلؤةً تتألقُ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ لتنقش في وجهها تاجَ مملكةِ الضوْء..»

إني إذن لمن الشاكرينْ

سأسافرُ في غيمةٍ من زفيرِكَ، آخذُ ضوْءاً من الأمس أشرعةً

وأطيرُ على صدرِكَ المتجعِّدِ بالموج واللازوردِ المفتّح والياسمينْ

وأحلِّقُ فوق سواحلِ أخدودِكَ المترامي الذراعين من شرْقِ كفّكَ للغربِ مؤتزرا بحرير السماءِ المذّهبِ، فامسحْ بروق الهواجسِ

---

(١) هيفايستوس Hephaestus : هو صاحب الكير العظيم، إله النار القبيح الأعرج ابن زيوس وهيرا في الميثولوجيا الاغريقية.

والانقسام بِشْطرَىَّ، هدِّىْ صُراخَ وحوشِكَ فى الظلمةِ الشبحيةِ كنْ بى رحيماً .. رحيمْ

واجعلْ الرِّيحَ أنفاسَ وردٍ، وأوقفْ عواصِفَكَ الموسميَّةَ، واضفُر صهيل الخيولِ وصبْوةَ طيركَ أغنيةً تتردَّدُ فى رئة الأفقِ حتى أعودَ بكنزى المضئ فأبذرُه فى القفار، وأطلِقُة فى العيون الكليلةِ، فى رَدَهاتِ الصدورِ، أعلِّقُهُ فى فضاءِ السديم !

٣/ ١٠/ ١٩٩٤

أغنية النار

حدَّثتْني النارُ أن أرشفَ من فيها ملايينَ القُبَلْ
قالت امْسحْ وجْهكَ المجْهدَ فى خدِّى،
وداعبْ قُصَّتى
قالت اكشفْ فتْحةَ الثوب، ونمْ بين النُّهودْ
قالت اشْربْ من نبيذى،
وتطهَّرْ فى ينابيعى
لكى تُشعلَ جوفَ الهاويةْ
تدفنَ الجثَّةَ ناشتْها طيورُ الموتِ عبر الأوْديةْ
وتحيلَ الشجرَ الملتفَّ فى الغاباتِ
فحماً ودخانْ
تَهدمَ الأبراجَ فى صمْت القلاعِ الموحشةْ
تَقفَ النهْرَ، فإن النهْرَ

عافتْه المياهُ الطائشةْ

تخْزنَ الرِّيحَ التى تصْفرُ فى جدْبِ الحقولْ

ولكَى تسقى نباتاتِ الطلولِ الطالعةْ

من رحيقِ الجمْرِ خمْراً وعَسلْ

حدَّثتْنى النارُ، والنارُ غناءٌ وغَزَلْ

وأنا أعْشقُ همسَ النارِ،

لا قرْعَ الطبولْ

وأنا أهوى رقيفَ الخصْرِ،

والخمرَ التى تُعْصَرُ من كرْمِ النهودْ

وأنا أعشقُ وعْدَ الحبِّ،

لا أقْوى على رَدّ الوعودْ

غير أنَّ النارَ

فى الكهْفِ

وبينى

ودخولِ الكهفِ

قُطعانُ الوعولْ!

١٩٦٥

مكابداتُ العشقِ والغربةِ

أطلُّ من نافذتى على مرايا البحر والسماءْ
حين أرى شمسَ الضحى الأميرةْ
مفتونةً بحسْنِها ترقصُ فوق الماءْ
بقامةٍ فارعةٍ،
من انحناءِ الموجِ حتى قُبَّةِ الفضاءْ
تُرْسلُ فى الأنحاءْ
جدائلاً من ذهبِ الحريرِ والتماعةِ الحناءْ
تُشعِلُ فى هوادجِ النخيلِ فى الخلاءْ
مجامراً من شبقٍ
إذ تنْثنى وتخلعُ الرِّداءْ
على ضلوعِ الأفقْ
لترتمى فى شهقةِ الأمواجْ

عارية

تغوصُ فى أواخرِ المساءْ

يشتعل الحنينُ فى دمى

ويشعلُ الرداءُ فى خدودِ الأفقْ

حُمْرَةَ الحياءْ!

*

أظل وحْدى ساهراً منقطعَ الرَّجاءْ

حتى إذا انشقَّتْ قشورُ الظلماتْ

عن قمر من مرْمر

ينثُّ فى مسامِّ طقس الليلِ

فضةً مذهَّبةْ

رأيتُه يطلُّ فى المرآةِ يستجلى أقاليمَ البهاءْ

ونجمةٌ عاشقةٌ؛ خميلةٌ من مخملىِّ الضوءِ والغناءْ

ترْمقُه بطرْفِها الكحيلْ

حتى يُفيقَ من تأملاتَه ويبدأ اللقاءْ

يْرتشفان من يواقيت النبيذِ فى الشفاهْ

كأساً من العشقِ المندَّى من نضارة الضياءْ

بين انعكاساتِ المرايا والرُّؤى

أقْضى اغترابىَ الطويلْ
تُؤنِسُ روحى صحبةُ الرِّفاقْ
رفاقىَ الشمس العروسْ، والبحارُ، والأقمارُ والنخيلْ!

*

لكننى إذا أتى ليلٌ شتائِىٌّ ثقيلْ
أغلقُ شباكِ المرايا ثم أستلقى وحيداً ضائعاً
والريحُ تبكى فى الشبابيكِ بكاءً موجِعاً
كأنها طفلٌ يتيمٌ غُلِّقتْ من دونِه الأبوابُ
بات - فى الظلامِ - عارياً وجائعاً
والبرْقُ من خلفِ الزجاجِ يُشعلُ الحريقَ
فى ملاءةِ الغيومِ، ثم يبدأ الركضَ
ويبدأ الصهيلْ
أرى على التْماعهِ الجميلِ وجهَكِ الجميلْ
يهمُّ قلبى بالرحيل
فموْطنى حلمٌ وراءَ البحرِ والأصفادُ صخر المستحيلْ
وتومئ الرؤى
يطلُّ منها وجهكِ القسيمُ يانِعا
وأنتِ فى الشرفةِ تحملينَ طفلنا الوديعْ

أراه يلقاني ضحوكاً ساطعاً

من فُرْجةٍ بين نباتِ الظلِّ والستارْ

حين أحييٍّ من بعيد راجعاً

وتزأرُ الرعودُ فى عرينِ مُزْنها

ويهطل المطرْ

حبّاتُه تدقُّ فى حقولِ ظلمةِ الفضاءْ

على زجاجِ الموْجِ والجدرانِ والهواءْ

لحنا كئيباً فاجعا

تسّاقُط الذكرى كما يسّاقطُ الوردُ الجريحُ

– فى الصقيع – دامعا

ألمٌّ من نثارِها وميضَ حلمىَ الدفئْ

أراه فى تبددِ الإيناسِ والوحشةِ ظلاً طالعاً:

وجهين باسمين من تحت الغطاءْ

أضمُّنى إليكما، نغوصُ فى دفء الفراشِ واللقاءْ

نخرجُ من سجونِ ليلنا الكئيبْ

إلى براحِ الحلم مُشْمساً وشاسعاً

حتى إذا جاءَ الصباحُ ناصعا

أفتحُ عينىَّ فلا أراكما

أطلُّ من نافذتي على مرايا البحر والسماءْ
حين أرى شمسَ الضحى الأميرةْ
ضفيرةً من ذهبٍ تلْتفُّ كالجزيرةْ
مفتونةً بحسنها، ترقصُ فوق الماءْ!

١٩٨٥

ينبع البحر

مُنعطفُ الليّلْ

حين تسْقُطُ شمسُ النَّهارِ

سفينةَ تبْر إلى ظلمةِ الماءِ

ينعطف الظلُّ فى طرقاتِ المدينةِ

ترْسو الطيورُ على مرْفأ العُشِّ

تبحرُ فى نهر أجفانها نائمةْ

أستعيدُ خطى السَّعْيِ من طرقاتِ النهارِ

وضوضائهِ لحرير المساءْ

أتسلَّلُ وحدى إلى كعبة الَّليْلِ،

فيها اتخذْتُ رواقاً،

أقدِّمُ للصمتِ قربانَ حُزْنى

تتراءى النجومُ عصافيرَ فى دوْحةِ الأفْقِ

تُرسلُ شقشقةً ناعمةْ.

تترقْرقُ أعراسُها فى دمائى

فأقطفُ من شجراتِ الأغانىِّ

تفاحةً فاغمةْ

حين يعلو صريرُ الجنادبِ

فى كعبة الشِّعْر

تصْمتُ تحت رواقِ السَماء العصافيرُ

يْعتكرُ الليلُ حُزْناً، وينطفئ الشعرُ

كالشهبِ فى عاصفاتِ الرِّياحِ

ويْركُلُ قُرْبانىَ الصَّمْتُ،

آكُلُ تفاحتى، والجنادبُ تُلْقى

على شجْوها العذبِ

حصباءَهاَ القاتمةْ!

١٥/ ١/ ١٩٩٣.

إيزيس وأوزوريس

(حواريَّةٌ)

[يتـمـدد أوزوريس على فـراش من العـشب، وإلى جـانبـه تـقف إيزيس.

ويتـحلق من حـولهمـا كـاهن ومـجمـوعـة مـن الفتـيـان ومن راقصـات المعبد يقومون بدور الكورس وقائده]

إيزيس : جمعتُكَ من دروب الأرضِ، أوزوريسْ

ودوَّخْتُ البلادَ النائياتِ، القفرَ، والأدغالْ

وناجيتُ الإلهَ / الشمسَ فى الأصْباحِ والآصالْ

رَفعْتُ إليه مظلمتى، فكفكف دمعىَ المحرورْ

ولكنِّى رأيتُ دموعَه الحمراءَ فى جُرْحٍ على الشفَقِ

وكان «تحوتُ» يصحبُنى بجوفِ اللَّيْلْ

يُبارِكُ خُطْوتى، وبضوئه المقرور

يغسلُ جفنىَ المكحولَ بالأحزانِ والأرقِ

وضوَّأتِ النجومُ الخضرُ فى مقصورةِ الظلماءْ

تخط أناملى - فى وجهها - كلماتىَ السحريَّةَ الزرقاءْ

لتَخترقَ الغيوبَ حروفُها وتضىءَ لى أسجافَها الدكناءْ

فأجمعُ ما تناثرَ من رفاتِ حبيبىَ المعبودْ

وأنفثُ فيه من روحى

وأبعثُ من برارى الموْتِ ربَّ الخصْبْ

قائد الكورس : فيافتْيانُ دُقّوا الطبلَ للفتياتِ

كى يبْدأْنَ طقسَ البعْثِ باسْمِ الربْ

وهاتوا الدُّفَّ والقيثارَ

يُنشدْنَ الترانيمَ السماويَّةْ

إيزيـــس : (مـسـتـمـرة) وجـدَّفَ زورقى فى النيل، من أقـصـي

الجنوبِ إلى مصبّ النهرِ، فى بوابة البحرِ الشماليَّةْ

وساءلْتُ الطيورَ الجارحاتِ، الوحْشَ

سفْنَ الصيْدِ، والأسماكْ

دَسَسْتُ لها رقًى سحريَّةً تحمْيك إذ تلْقاكْ

فلا ترحلْ، ودعْنى أرْشفُ الأضواءَ من عيْنيْكْ

أرشفُ صوْتَكَ القدْسىَّ إذ ينسابْ

قائد الكورس : فيا فتيانُ هاتوا اللوتسَ السحْرىَّ والأعنابْ

أحد الفتيان : لقد ذَبَلتْ

قائد الكورس : فهاتوا الخمْرَ ..

أحد الفتيان : قد نَفَدَتْ.. فلا زقٌ ولا أكوابْ

قائد الكورس : فهاتوا ما تبقىَّ من عبيرِ المِسْكِ والأطيابْ

ورُشُّوهُ على الأعتابْ

تعودُ إليكم النُّعمْى التى ذهبتْ

أوزوريس : (يتملْملُ فى مرْقده) ......

إيزيس : تناديكَ المسلاتُ التى انكفأتْ

وتسألُك الشجيراتُ التى انطفأتْ

وتصدحُ فى سقوف المعبدِ الصخرىِّ

أنَّةُ كاهنٍ صلَّى

وناجى الغيبَ، والأسرار، والليْلا

لتورقَ فرحةُ اللُّقْيا بخدِّ الأرضْ

ونخلاتٌ وقفْنَ دموعُهُنَّ تقولُ فى العتمةْ:

بموتِكَ يا إله الخصبِ جفَّ النسغُ فى الرطبِ

وقد سقطتْ عناقيدٌ من الياقوتِ والذهبِ

وراقصةٌ أتتْ من «طيبة» العلْيا

وقد خلعتْ إزارَ الليل، قد رقصتْ

وتغزلُ شعرَها ظلاًّ

لأن بها جنيناً مات واستلْقى على الأعتابْ

وقد نذرَتْ كقربانٍ لكَ الطفْلا

أوزوريس : أعيدينى إلى التابوت يا إيزيسْ

فإنى مسَّنى الضرُّ، أحسُّ الحزنَ والوجَلا

كفى رقصاً، كفى دمعاً، كفى تقديسْ

إيزيس : فوا فرحى بموسيقى الهواءِ تجئُ من رئتيكْ

فأسمعُ صوتَكَ القديسْ

أوزوريس : أعيدينى إلى التابوتِ يا إيزيسْ

ودعْكِ الانَ من صوتى

فإنى قد سئمتُ العالم الأرضىَّ:
ما ينثالُ فى الأصلابِ من شرٍّ ومن تدليسْ
أقمتُ على ضفافِ النهرِ مملكةً من الخضرةْ
جعلْتُ الفأسَ، والمحراثَ، والإزميلَ أقلاما
سطرْتُ بها على وجْهِ الحقولِ رؤى وأحلاما
فأزهرَ فى مدارجها غناءُ القمح والأطيارِ والشادوفْ
وطارتْ فى الهواءِ روائحُ الأفرانْ
وقد دارتْ مناسجُها على كِتّانها المندوفْ
وفى صدرِ السهولِ السمْر فى الودْيانْ
غرسْتُ عرائسَ الأشجارِ
من تينٍ ومن كرم ومن رُمّانْ
وطرَّزْتُ الشطوطَ ببسمة البردِيِّ واللوتسْ
ولكنَّ الضغينة أشعلتْ فى الخصبِ
عاصفةً من الرجْسِ
أطلَّ الغدْرُ – من صدرِ الأخوَّةِ –
مثلما ينشقُّ بيضُ الصِّلِّ عن فقْسِ

وألقتْ بى مواليدُ الجحورِ إلى

ظلام الموتِ والرمْسِ

ولكنى استرحْتُ بعالم الموتى

فدعْكِ الآن من بعثى

ارفعى عنى التمائمَ والبخورَ،

وقرِّبى التابوتَ، هاتى مركبَ الشمسِ

إيزيس : وطفلُ الحبِّ «حوريسُ» المقدسُ..؟

أوزوريس : أين كنتِ وضعْتِه؟.. آهٍ

قد اشتاقت له نفسى

إيزيس : لقد أوْدعْتُ ورْدَتنا برارى العشبِ

بين دوائر المستنقعاتِ بأسفل الدلتْا

فإنْ قُمْتا

تملَّيْنا وسامتهُ، رأيتَ بوجههِ الطفلىِّ وجَهكَ

يا أميرَ الحُسْنِ والحِسِّ

أوزوريس : فإنك تُحسنين الظنَّ كالأمسِ

مليكتىَ الجميلةُ، إننى سأعودُ رب العالم السفلى

إيزيس : وتتركُ زوجةً تهواكَ، تتركُ طفلَنا القدْسى؟

أوزوريس : سأصعدُ فى شعاع الشمس نحو العالم الآخر

لأزْرعَ فى سهولِ القاعِ أشجاراً .. بساتينا

وأُجْرى تحتها الأنهارْ

فتصبحُ جنةَ المأْوَى لعشاقِ العدالةِ والندى الأخيارْ

وأبنى منزلاً للنَّارِ فى كهفٍ من الصخْرِ

لأسقى فيه عشَّاق الظلام دماً وغسلينا

أسوقهمو بأغلال إليها – بعد محكمتى –

فيصلَوْن العذابَ بها مُهانينا

وأتركُ فى يدْيكِ الانَ مملكتى

ضَعى مولودَنا القدسىَّ فى أهدابك الوطفاء

وربِّيه على لبنِ البطولةِ واملئى رئتيه بالأضواءْ

فإنى جاعلٌ منه وريثىَ فوْق عرشِ الأرضْ

سأتركُ فى يديْه صولجانَ الخصْبِ والإنماءْ

وحتى يكبُرَ الطفلُ الإلهى الرضيعُ ويلبسَ التاجا

يدورُ القاربُ الشمْسُّ فى الأفقِ

وتأتيكم من الدوراتِ سبعُ سنينْ

عجافِ الخصْبِ، لازرعُ ولا ضرعُ ولا أبناءْ

وسوف يجفُّ ماءُ النيلِ فابتهلوا إلى «حابى»

لعلَّ النيلَ أن يجرى وأن يعطيكم البركةْ

فسحْرُ النيل معقودٌ على سمكةْ

تخفُّ عليكمُ – فى الصَّيْفِ – قبضةُ «ستّ»

ربِّ الجدبِ والبغضاءْ

إيزيس : سأبطلُ سِحْرهُ، وأُسيلُ فيه الماءَ من دمعى عليك، على

أسى الوادى، علَى حوريسَ والشرفاءْ

أوزوريس : أقدِّرُ فيكِ يا إيزيسُ آيات الوفاءِ، الصبر، والحكمةْ

وأشكرُ جهدَكِ الدائبْ

لجمع رفاتىَ الملقاةِ فى الأصْقاعْ

وبْعثى من ظلالِ الموتِ من عشقٍ، ومن رحْمةْ

فلا يحزنْكِ اصرارى، نبوءتىَ الكئيبةُ بالذى يأتى

وتزرعْ قلبك الصافى بشوكِ الحنقِ والنقمةْ

وهاتى مركْبَ الشمسِ

وحوريسَ الذى اشتاقت له نفس

أقبّلُه وأصعدُ فى أشعة «رع»

وســـوف أزوركم فى كل عــام حــين يشـــرق مــوسـم

الفيضانْ!

١٩٦٦

حوار على ضفة النهر الكئيب

وجهاً لوجه فجأةً كان اللقاءْ

فابتسمتْ وغمزتْ بطرفها الكحيلْ

وفى دلالها الذى عهدْتُه

تمايلتْ واستندتْ على جدارِ الجسرْ.

*

هُنَيْهةً شاهدتُها فوق زجاجِ الذاكرةْ

(بوجهها الخمرىِّ من تعانُقِ الحنطةِ

والطمى ولونِ الوردِ فى لوحةِ عاجٍ باهرةْ)

صبيةٌ تفورُ فى عرقها سخونةُ الدماءْ

تنازلُ الفرسانَ فى تحولاتِ النهْرِ

فوق الساحةِ المحتدمةْ

فالريحُ والأمواجُ فرْسانٌ وأحصنٌ مطهَّمةْ

يسَّاقطُ الفرسانُ قتلى، ثم تصهلُ الخيولْ

جريحةً، يجْرِفُها التيارُ فى طوافِه على الشطوْط

شاهدتها فى ساعة القنوْط

صفصافةً غنيَّة الأفياءْ

تسكنهُا الأحلامُ والطيورْ

ولا يُثيرُ حزْنهَا شتاءْ

شاهدُتها فى ليلةِ الهزيمةْ

مليكة، تمسحُ دمعَ الحزنِ بابتسامةٍ كريمةْ

ثم تمدُّ كفَّها لسلَّة الأفاعى

لكنما يمنعها الكهانُ قد تيقظوا فى هبَّة حكيمةْ

شاهدتُ عُرسَ الفجرِ يدنو من خدودها النديَّةْ

فتنثنى للحظة تعبٌّ من أضوائه البنفسجيَّةْ

وتعبرُ اليأسَ إلى سحائب العطاءْ.

*

حين انتبهتُ كانت الحسناءُ ما تزالْ

تغمزُ لى بطرْفها الكحيلْ

وكان وجهُها الجميلْ

(رغم قناع البهرجِ الزائف والأصباغِ)

قد أصابه الكلالْ

فقلتُ: أعْرفُكْ

ألست بنتَ الشمس، ربَّةَ القمرْ

كنتُ مغنِّيكِ الذى يطوف بالدروبْ

فى لحظةِ الصحوِ، ولحظةِ المطرْ

فقَّطبتْ جبينَها، وأنكرتْنى

قلتُ: كيف تنكرينْ

والجرحُ فى صدرى شارة فرسانكِ فى حطينْ؟

فتمْتمت ساخرةَ: ماعدتُ أستبينْ

قلتُ: أنا المغنىِّ.. ، وا أسفا على السنينْ

قالت كمن تذكَّرَتْ: أنت المغنِّى جئْتَنى من «منْف»

من معبد الشمس القديمْ

تعرفُ سرَّ النيلِ والأهرامِ والطلاسمْ

تستقرئ التاريخ فى خواطرِ الحجارْ

تستنبئُ الرموزَ فى صحائف البرديِّ واللوتسِ والتمائمْ

هيا بنا نرقصُ رقص «الخضْبْ»

قلت لها: جئتُ إليكِ عبر «منفَ» من هياكلِ المعابدْ

معابدِ الشمس

إلى أرْوقةِ الخشوع فى المساجْد

فاشتعلتْ في الأعْيُن النجلاء ريبةٌ ذكيَّةْ

وتمتمتْ فى لهجةِ المعاندْ:

أىَّ مساجدْ

قلتُ لها: أتنكرينَ ما يرى المشاهدْ

أتنكرينَ الألف مأذنةْ

وقُبَّةَ الأزهرِ، والفسطاط، والمرتِّلينَ فى الصحونِ الأمنةْ

أو نشوةَ القنديلِ، أو إطلالة الهلالِ أو تكبيرة العيدين

والمكاشفاتِ والمراسمْ

فتمتمت مستهجنةْ:

– لا أُنكرُ المآذنْ

لكن كفرتُ بأمةِ الصحراء والخيامْ

ذات العباءاتِ، اللحى، العمائمْ

– أينكرُ الانسانُ حُرْمةَ الدماءِ كالسوائمْ؟

– أقلْتَ حُرْمةَ الدماءْ؟

وهل رعى أهلُ الشقاقِ والعداءْ

لى حُرْمةً، عهداً، عطاءْ؟!

– تفرَّقوا لما دعوْتِهمْ لساحةِ الأعداءْ

– دعوتُهم للنورِ والهواء

فكيف للمصدورِ أن يجفو النسائمْ؟

– ها أنتِ ذى تستمّتعينَ بالمغانمْ

ضائعةً على جُسورِ النيلْ قطةً شريدةْ

تلتقطين الخبزَ – من كزازةِ الأعداءِ – والدراهمْ

وهاهم الحراسُ يفتحون باب الليل

ينسلّ شيطانُ الظلامِ كى يمصَّ النسغَ من غضارةِ

الشجْر

يُسمِّمُ النسيمَ فى صدْرِ الكرومِ والنخيلِ والبراعمْ
ويمتطى ظهرَ «أبى الهولِ» الإلهِ»
يبسُطُ الكفَّينْ للأهرامِ يطلبُ الصُّكوكُ
وأنتِ فى هواجسِ الظلامِ والأحلامِ والشكوكْ
يصَّاعدُ اللبلابُ فوق الكتفينْ
ويبتنى تعريشةً للبومِ رْطبةً ظليلةْ
وحين يُنشدُ المخنَّثونَ فى الساحاتِ أغنياتكِ الذليلةْ
يُسلِّمُ الجلادُ مُنْشديكِ فى مواقف البطولةْ
للنارِ، والقطبانِ، والمنفى..
فترسمين فوق جبهْةِ الشوارع ابتسامةً عليلةْ
يسفحُ فيها الضوءُ كبرياءَه فى ذلةِ الإعلانْ
وفى ثنايا المهرجان تختفى المساوماتُ والهزائمْ!

*

تشاغلتْ بلمْسة الأزرارِ فى صُدارِها الأنيقْ
وحدّقتْ فى النهْرِ
(كانْ قاربٌ على المدى يغالبُ التيارْ)
وأطرقتْ كيما تدارى دمعة تكادُ أن تفرُّ

ثم أدارتْ وجْهَها نحو جدار الجسرْ

قلت لها والأرجوانُ فى مغيبِ الشمسِ يلْقى بالأسى الرقيقْ

– لا تسْمحى لسُحُبِ العبوسْ

أن تعبر الوجه – العروس

فينطفى بريقةٌ كأنه مدينةٌ تهرُبُ من سمائها

الأعراسُ والشموسْ

فما أردتُ الطعنَ يا حبيبتى لأننى .. جريحْ

تلغُّ فى جُرْحى خناجرُ الطقوسْ

تنهدت وقطرتان من ندى على زهور العيْن:

– تعبرُ شمسى الآن أبراجَ النحوسْ

قلتُ: فأنتِ تُدْركينَ صدق ما أقولُ

– أشاهدُ المأساةَ من بداية الفصولْ

– وكيف تصبرين؟

– يا كمْ عرفتُ من طغاةْ

يستعبدون الناسَ بالأوهامِ والحديد والجسارةْ

وكان عمرُهُمْ على يدى قصيرْ

فكل ظلمةٍ تجئُ في أحشائها البشارةْ

*

بينا تكفكف الدموعَ حانت التفاتةٌ منها إلى الطريقْ

فصاحت: اذهبْ، جاءني الحراسُ والجنودْ

يدمْدِمونَ في غضبْ

قلت لها: لا أبرحُ المكانْ

وأتركُ الأذنابَ يقطفون نجمةً من الذهبْ

فتمتمت: ماذا يفيدُ أعزلٌ وحيدْ

أمام هجمةِ الرصاصِ واللهبْ؟

قلت لها: يموتُ، ثم يستحيلُ دمُه الشهيدْ

في كل قلب صرخةً، وثورة، وزهرةً، وعودْ

قالت : يموت غيلةً ودونما شهودْ

هذا الذي يقولُ ما تقولْ

قلت لها: الموتُ خيرٌ من حياةِ الذلِّ والخمولْ

فهمهمت: إني ادَّخرْتُ المخْلصينْ

لساعةِ البركانِ والرعودْ

فكيف إن تساقطو على الدروب واحداً فوحداً

قلت لها: إن لم يكنْ بالسيف والرصاصْ

تساقطو مواجدا

*

تركتُها للموعدِ القادمُ

وحيدةً حزينةً تشرعُ فى النشيجْ

شمساً يغطى وجْهَها الغبارُ والسحبْ

وقمرا ملطخاً بالدمِّ، زهرةً بلا أريجْ

حين استدرْتُ عائدا

شاهدتُ أدمعاً تسيلُ فوق خدِّ النيلْ

سمعتُ زفرةً تجئ من ضلوعِ الموْجْ

منقوعةً فى حزنِه النبيلْ

قلت: توقفْ أيها النهرُ الكئيبْ

أو اتئدْ، لا يشرب الأعداءُ منك

السلسبيلْ!

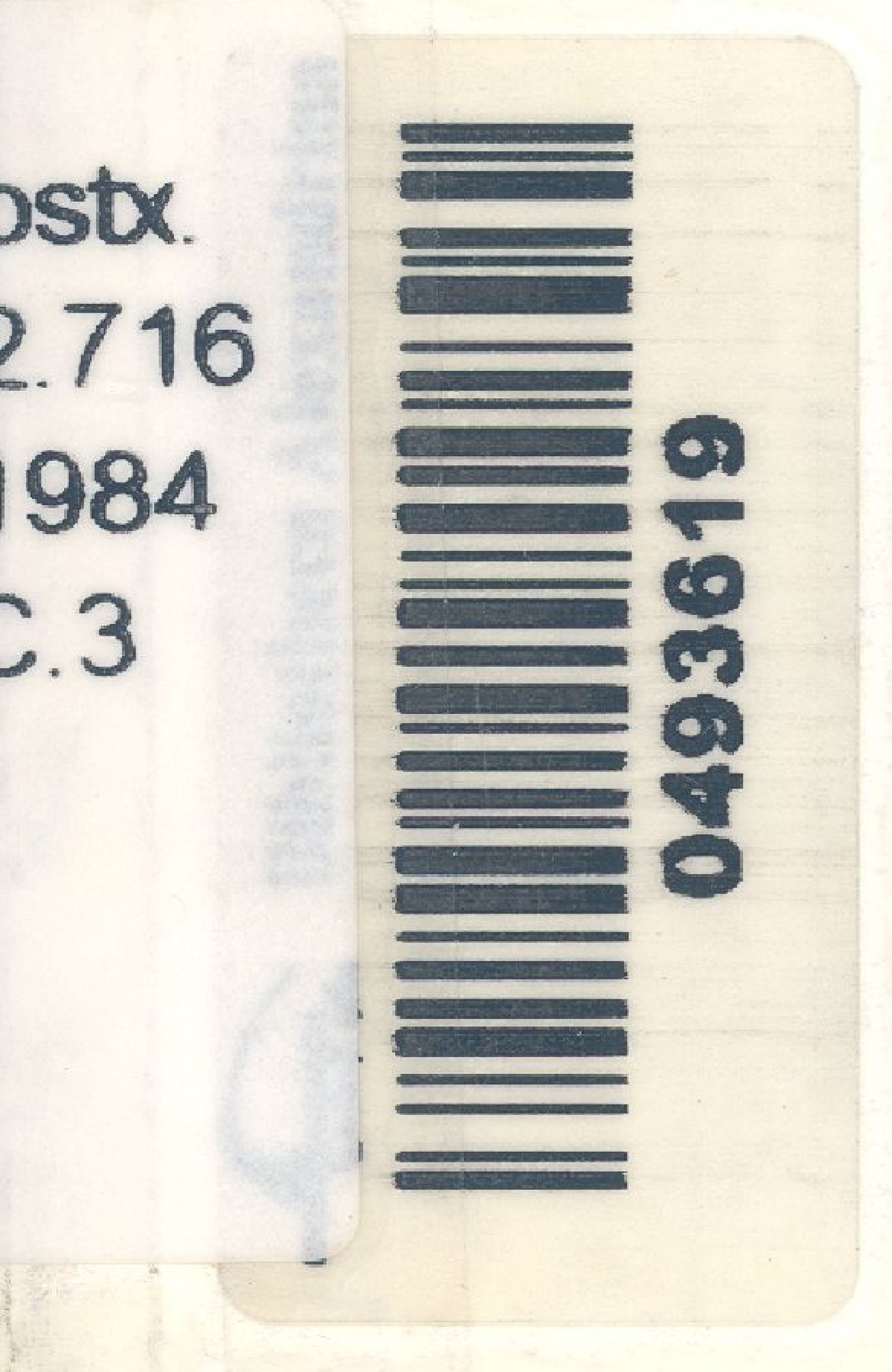
١٩٧٩

قصائد الديوان

شركة الأمل للطباعة والنشر

رقم الايداع : ٩٧/١٤٩٤٣

هذا الديوان علامة بارزة على أن الشعرية لم تعد تقتصر على انتاج الدلالة، وانما أصبحت عنايتها الأولى انتاج التراكيب فى تشكيلات جمالية، تبتعد بها عن المردود المعجمى من ناحية، وتبتعد بها عن العلاقات المألوفة من ناحية أخرى، ويلعب المجاز الدور الأول فى انتاج مثل هذه التراكيب ، ويلازم هذه التشكيلات اللغوية نوع من تعتيم المعنى، فلا يبلغه المتلقى إلا بعد مطاولة ومجاهدة، وهي خصيصة شعرية من الطراز الأول!



شركة الأمل للطباعة والنشر